الفتى الذي لم يقتلوه

قصة بقلم علي زين العابدين الحسيني

« ... وطلعت الشمس وأخذ الجنود يقتادون من بقي حيا ، ثم أوقفونا هناك في ساحة القرية عدة ساعات .. وكانوا يتضاحكون ، ويسخرون منا .. ثم ، نقلونا بسيارتين الى مستوطنة جيفات شاؤول، وبعد ذلك طافوا بنا حاسرات الرؤوس ، حافيات الاقدام ، وأخذوا يلتقطون لنا صورا ، ثم أمرونا بعد ان نزعوا عنا ثيابنا وتركونا عرايا ، ان نمضي في اتجاه المناطق العربية ... » .

(من شهادة زينب احمد موسى
من أهالي دير ياسين)

فرشت شمس الظهيرة ضوءها الساطع على القرية الصغيرة فانكمشت الظلال ، وبدا ظل الاسير بقعة سوداء صغيرة عائمة على أرض الساحة . وبينما كان حارس الاسير يصفر لحنه الحزين ، كانت الهمهمات العبرية تناقش في حماس « اللعبة الجديدة » .

. . .
. . .

انزلقت الشمس قليلا صوب الغرب فواجهت الجرح العميق في عنق الاسير والذي كان يبدو كفم مسدوه عديم الاسنان ، انتابت الاسير رغبة طاغية في حك الجرح ، غير انه كان يدرك استحالة ذلك بعد أن توقف حارسه عدة مرات عن التصفير ليخبره في لهجة قاطعة « ان عليه ان يطيع كي لا يموت .. » . بلغت شهوة الحك حدا جعلت الاسير يدفع تفكيره في عنف الى أمر آخر : متى ينتهون من هذه اللعبة ؟!

. . .
. . .

أمام الاسير كانت البئر جاثمة تحدق بعينها المقلوعة كخرافة مفزعة ، وعند الفوهة كان ينهي سيل داكن اللون تتزاحم عليه الدبابير .

راقبت عيناه في انتباه شديد دبورا بني اللون تتوسط بطنه حلقة صفراء انفرد في امتصاص قطعة لزجة غارقة في السيل ، تأمل مؤخرة الدبور وهي تهتز بلا توقف كالبندول ، ومن جديد عادت أطراف الفم المشدوه تأكل بالحاح ، فسال اللعاب من زاويتي فمه .

وكان عليه أن يفكر في أمر آخر ، متى ينتهون من هذه اللعبة ؟!

. . .
. . .

انحشر صفير الحارس في أذنيه . حاول أن يتذكر اين سمع اللحن الحزين ، أين ؟!

« منذ شهور اصطحب أمه في زيارة للمدينة ، كانت بجواره لا تكف عن السؤال :

ـ شارع ماذا ؟
ـ ....
ـ وهذه الساعة الكبيرة ؟
ـ ....
ـ لماذا لا تشتري لابيك عباءة جديدة ؟
ـ ....

وطاف مع أمه في شوارع المدينة حتى وصلا الى القسم الآخر منها ، ورأى الاسلاك الشائكة ممددة على الاسفلت . توقف وأخذ يراقب الحياة في الجانب الآخر . كانوا يرتدون ملابس اوروبية ، وقبعات ، وكانت الفتيات يرتدين سراويل كالرجال . شدته أمه من ذراعه هامسة « دعنا نمضي من هنا » . أصغى الى صياح بعض الصبية العرب الذين كانوا يلعبون « لعبة الحرب » ويثبتون عصيا كالبنادق على ظهورهم ، ويصدرون اصواتا كالانفجارات من أفواههم . راقبهم وهم يندفعون نحو بعضهم في صراخ شديد وهم يتساقطون . بعد لحظات التف الصبية حولهما وحذروهما من اجتياز الاسلاك الشائكة والاختلاط بالعدو « لان من يذهب الى هناك الخونة فقط » .

لكزته أمه وهي تحثه على المضي قائلة : « ألم أقل لك ؟ » . الآن يذكر اللحن الحزين ، والدته تجلس بجواره . صالة العرض في سينما « الحمرا » غارقة في الظلام . على الشاشة جنود ودبابات . وصفير . كانت أمه لا تكف عن السؤال بصوت مرتفع ليفسر لها ما تراه :

ـ أين الالمان ؟
ـ الذين يضعون على أذرعهم الصليب المعقوف .
ـ لماذا الصليب المعقوف ؟
ـ لا أدري .
ـ لماذا يصفرون ؟

ـ ....
ـ لماذا يقتلون ؟
ـ كفى يا أمي .
وكفت أمه ولم تخاطبه حتى عاد الى القرية فشكته الى ابيه الضرير وهي تبكي .

. . .
. . .

طارت من البئر ذبابة سوداء دارت حول الاسير ، لمست بجناحيها جرحه وابتعدت عائدة الى البئر . وعادت أطراف الفم المشدوه تاكله ، قال في نفسه ، لو انهم يتيحون لي فرصة واحدة لاحك . أدرك ان هذا سيكون موضوعا جديدا لتسليتهم . سيموت واقفا ساكنا ، هكذا . فكر في الذبابة التي طارت من البئر ثم عادت وود لو ان تلمس جرحه بجناحيها مرة ثانية . وكان عليه ان يفكر في أمر آخر .

« أشجار السرو العملاق هوت الليلة الماضية تعض السراب ، منذ سنوات كان يلتصق بجدته في الليالي الشتائية ، وكانت جدته تروي له بصوتها الغليظ حكايا مخيفة وتهمهم : « أنصغي الى هذا الصوت ؟ » فيدق قلبه في فزع وهو يصغي الى عويل الريح وهي تعبر بين اشجار السرو . فتقول الجدة : « ها هي الريح تبكي » .

ويسألها بصوت مرتعش ضائع الحروف : « ولماذا تبكي ؟ » . وتخفض الجدة صوتها وتقول : « هيه ، أنت اذن لا تعرف لماذا تبكي الريح ؟ ألا ترى انها لا تتوقف عن الرحيل ؟ » . ويصمت برهة ثم يعود يسأل : « وهل يبكي الرحيل ؟ » . فتصدر الجدة آهة مفزعة قائلة في استنكار : « هل يبكي الرحيل ؟ أجل ، حينما يكون كهذا الرحيل » .

* * *

مشت ذبابة على عنق الاسير ، كانت سيقانها مبتلة ، باردة ، غمره الدبيب المخدر ، أوشك ان يرفع ذراعه رغما عنه ليحك . دوت بجوار اذنه رصاصة ، وعلا سباب الحارس .

« هذه ساحة قريتنا الصغيرة ، خالية يا جدتي ، تلك عباءة أبي ممددة على التراب . عندما اشتد القتال في البلاد دفع أبي بندقيته القديمة اليّ قائلا : دعنا نرى ماذا ستفعل الآن . سألته أين الرصاص ؟ أجاب في حدة : ايامنا لم نكن نقول مثل هذا .

قضيت نهارين كاملين في تلميعها وتنظيفها . أخذت أصوبها على أهداف خيالية وأضغط على الزناد في حزم . عند وصول أول عربة نقل لطلب النجدة مضيت دون ان اودع أبي . مررنا على ثلاث قرى أخرى ، وجاء معنا رجال آخرون . سألت أحدهم ، وكان يلتصق بي : هل أجد معك بعض الرصاص ؟ دهش وتطلع اليّ وقال : لماذا أتيت اذن ؟ قلت : أبي باع كل ماشيته . لم يبق لدينا شيء يباع . حدجني في صمت وابتعد عني . قبل ان نصل الى ميدان المعركة اقترب مني وقال في تجهم : هاك عشرة ، هل تجيد التصويب؟ أومأت له . هز رأسه وقفز من العربة ، فقفزت خلفه واتجهت صوب المعركة » .

. . .
. . .

غرست الذبابة خرطومها الحاد في الجرح ورفعت ساقيها الخلفيتين في انتصار . غمرته العشعريرة عندما أحس بلدغة الذبابة .

« مساء أمس أيقظني أبي وتمتم : ها هم ، لقد جاءوا الينا أخيرا . أرهفت السمع . كان السكون في الخارج رهيبا . قلت في همس : يا أبي لا أحد هناك . قال في لهجة قاطعة : بل انهم هناك . الكلاب كفت فجأة عن النباح . خذ البندقية وامض مع الآخرين . قبل ان افتح فمي انطلقت مئات الانفجارات ، عدوت الى الخارج ببندقيتي ، اتجهت الى مشارف القرية ، خلف جدار متهدم وجدت بعض الرجال ، وقفت الى جوارهم ، أخذت اطلق الرصاص على ومضات بنادق العدو ، سمعت واحدا يقول : لقد حاصرونا هذه المرة . واختنق صوته ، وسمعت ارتطام جسده بالارض .

بعد ساعات لم يعد الرجال يطلقون الرصاص ، بحثت عن رصاص أحشو به بندقيتي لم أجد ، عدوت الى البيت ، لم يستطع أبي اخفاء لهفته ، قال : لقد كف الرجال . أجبت وأنا أوشك على البكاء : مات الرجال يا ابي . نكس رأسه وسألني بصوت متكسر والبندقية ؟ تطلعت الى عينيه الضريرتين في حنان . مددت له البندقية ، تحسسها وأجهش في بكاء مرير . قال لي : لا تنس ان تدفنني بجوار جدتك . فجأة اضاءوا ساحة القرية بمصابيح سياراتهم ودباباتهم . أخرجونا من البيوت وأوقفونا في منتصف الساحة . قال الضابط في كلمات مبتورة الحروف : سنبقي حيا واحدا ليروي للباقين ما جرى . ولطمني بقفازيه وهو يقول : « هذا » . وتركوني أشاهد اللعبة الرهيبة . قبل ان يطلع الفجر علقوني من قدمي في فرع شجرة ورجوني بكلمات مهذبة أن كان وقتي يسمح لاروي لهم حكاية مسلية . تذكرتك يا جدتي . حاولت ان احكي لهم حكاية السرو العملاق والريح التي تبكي من الرحيل .

قبل ان اقول شيئا قال واحد : غنّ لنا أغنية عربية . ماذا تغنون في ليالي الحصاد ؟ أو عندما تتزوجون ؟ اقترب آخر ، وأقعى بجوار رأسي المتأرجح ، وأشعل عود ثقاب قرب عيني وقال في نبرة متوسلة : ساعدني يا أخي . أنا مؤلف ولم يبق في مسرحيتي سوى المشهد الاخير . ناداه آخر ضاحكا : سيمون ، لماذا لا تلتقط له صورة ؟ » .

* * *

انتزعت الذبابة خرطومها الحاد من جرح الاسير ومضت تفتش عن مكان اخر اكثر رطوبة . غرس الاسير اصابع قدميه العارية في التراب الساخن .

« آه يا جدتي . أوقفوني بعد ان قطعوا الحبل فجأة فهويت على رأسي . ركلوا وجهي بأحذيتهم وهم يقولون : ستلعن الحياة ايها العربي . سمعتهم يتهامسون . مضى بعضهم الى البئر . عادوا بعد ذلك . قال واحد : فلنفكر في لعبة مسلية من اجل هذا . اقترب مني وجرح عنقي بخنجر حاد ، وقال : لن تموت الا اذا أطعت . حملقت فيه في صمت » .

* * *

حشرت الذبابة جسدها في أعماق الجرح . أخذ يصغي الى الاصوات العبرية . مرت بجوار أذنه رصاصة ففزعت الذبابة وطارت بعيدا . ضحكوا وهم يستمعون الى الحارس وهو يقول : ألم أقل انه لن يتحرك . بدأت الشمس تميل للغروب . ومض خاطر سريع

في مخيلة الاسير ، قال في نفسه : « ماذا لو اني فعلت ذلك ؟ » . أغمض عينيه ، رآهم خلفه يتأهبون للرحيل . استدار ، اندفع ، صرخ . حملقوا فيه في رعب وذهول ، انتزع مدفعا سريع الطلقات، بدأ يحصدهم بالرصاص ، واحداواحدا واحدا . رفع المؤلف ذراعيه في توسل . سقط على ركبتيه وقبل قدمي الاسير . وضع ماسورة البندقية في فم المؤلف ، دفعها اكثر ، واكثر .

ـ اخلع ملابسك .

جمدت ملامح الاسير . فكر ان يرفض . لكن صوت الحارس علا : « سننتهي الآن منك . سنودعك . أحس بأيامه المتوقدات تستحيل الى فحم بارد ، بدأ يفك ملابسه ، رأى عيون القرويين ترمقه في استنكار . امتلات عيناه بالدموع . تذكر عبارة فتاته السمراء « هل يحبنا الله مثلما نحبه ؟ » . أوشك ان يبكي بصوت مرتفع وهو يقول : لا . غمرته قشعريرة شديدة عندما لامس القميص طرف الجرح . « قال الضابط : سنبقي واحدا ليروي للباقين ما جرى » . بندقية ابيه القديمة علقها الجنود على فرع شجرة وأخذوا يضحكون . تذكر كل الحكايا التي كان ابوه الضرير ينسجها عن ايامه مع الثوار . هذه صوت حارسه :

ـ أيها العاري .

تفجر الدم في عروقه ، عادت عيون القرويين تتأمله ، اقترب دبور من وجهه وراح يتأرجح امام عينيه في نهم وتحفز ، طارت الذبابة من الجرح ، أوغل الدبور فيه ، صاح الحارس : استدر ببطء .

رفرفت حمامة بيضاء في لون الحليب فوق البئر ثم ألقت بنفسها كالقنبلة في الفضاء وغابت . تعددت نظراته على الارض الفسيحة الخضراء ، وعلى المقبرة . بدأ يبحث عن قبر جدته ، ذاك هو « أتصغين يا جدتي ؟ الآن اراهم ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، كثيرون ، يلوحون لي بايديهم في مرح : « هالو عربي ، هالو أرابيم » .

ذات مساء سألتني وهي تضم غطاء وجهها باحكام :

ـ ماذا لو جاءوا ؟

ابتسمت وأنا أرد بلا مبالاة :

ـ ماذا لو جاءوا ؟

لمست يدي برفق وهمست :

ـ ألا تعدني بشيء ؟

قلت :

ـ بلى ، بكل شيء .

ـ « هل يحبنا الله مثلما نحبه ؟ » .

لم أجب .

ليلة أمس أوقفوا أبي الضرير . قالوا له : خمن من أين سيأتي الرصاص ؟

خيل اليّ انه يبحث بعينيه الضريرتين عني ليسألني : ماذا فعلت ببندقيته ، ورأيته يلوح بيديه امام عينيه حين اطلقوا عليه الرصاص . تذكرت فتاتي وهي تقول : ماذا لو جاءوا ؟ تطلعت اليّ عندما هوت عباءة أبي ، كانت تحاول ان تقول ، ها هم قد جاءوا . ركع المؤلف على ركبته امام فتاتي ، وقال لها فينبرة متوسلة ساخرة : ساعديني أيتها الاخت العربية .

قال حارسي وهو يشد الغطاء عن وجهها :

ـ دعيه يرى وجهك .

قال آخر :

ـ اذهبي معه للداخل .

* * *

حشر الدبور جسده داخل الجرح . سال الدم على عنق الاسير. صاح الضابط :

ـ سنعد للعشرة .

لم يفهم الاسير ..

ـ سنطلقك .

« الشمال ام الجنوب ، الى أين يا جدتي ؟ »

ـ وتركض قبل ان ينتهي العد .

« أمس رايت يا جدتي جموعا من الفلاحين تسير على غير هدى ، كانت الامهات تحتضن الصغار ، وكانت الفتيات يحجبن صدورهن براحاتهن فزعات .

ـ سنبدأ العد .

ـ آحاد .

« وكنا سنتزوج يا جدتي بعد موسم قطف الثمار » .

ـ اثنان ، تحرك يا عربي .

« ذات يوم سمعت فتاتي تقول لامي : ليت كل الفتيان كابنك »

ـ اركض .

« وترك ترابنا الاسمر ، وأزهار الليمون ، والريح التي تبكي »

ـ خمسا (صاحوا جميعا) .

« واطوف على القرى عاريا لاحكي ما جرى للنساء والصبايا »

ـ شيشا .

« وتروي الجدات بعدها حواديت جديدة للصغار »

ـ شبعا .

« وعندما يمر الفلاحون بقريتنا يتساءلون وهم يحثون الخطى بعيدا : أي وحش خرافي مرّ من هنا . آه يا جدتي لو تعلمين ، ها هم يلتقطون صورا تذكارية لي والمؤلف يصرخ : مسرحيتي .. يجب ان تركض » .

ـ شموني .

ها هو حارسي يحدق في وجهي ، يبتسم ، يربت على كتفي ، يسأل ، لماذا لا تطيع ؟ تمزقت ابتسامته . ما أشد دمامة القسوة يا جدتي . دفع بندقيته وضربني على وجهي بمؤخرتها . رفعت قبضتي ايضا ، أصابعي مغروسة في عنقه ، اسمع صوت ابي يقول : اعمق ، اعمق ، اعمق . اسمع صوت فتاتي تقول : اعمق ، اعمق .

عيناه يا جدتي تخرجان ، تسقطان ، أحسهم ينتزعون جلدي ، قلبي ، أصابعي تنغرس ، اعمق . ملايين من المعدن المصهور يخترقني، أموت ، السرو العملاق هوى ليلة امس . حارسي بلا عينين . اصابعي ما تزال ، كان الرصاص قد نفد يا أبي .. الحمامة البيضاء في لون الحليب ترفرف في هديل حزين ، نهشوا ظهري ، كسروا ذراعي ، اصابعي ما تزال ، تراهنوا على الجنين يا أمي ، لم ادفن الكهل الضرير بجوارك يا جدتي ، مات الذباب ، ابتلعت البئر الشمس ، آه يا جدتي ، هل اصغيت يوما الى ارتطام الاشياء في الجوف ؟

الآن يا جدتي ستصغين ..

علي زين العابدين الحسيني

صدر حديثا

في الادب الليبي الحديث

الكتاب السابع للناقد المصري

احمد محمد عطية

نشر دار الكتاب العربي بطرابلس الغرب ـ الجمهورية العربية الليبية